بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي

يدفَعُني إلى العمل بالمعرَّب والدَّخيل عدمُ خدمتهِ خدمةً علميةً تناسبُ هذا النوع من الألفاظ. ولعلَّ عملي في هذا الكتاب جديد ومبتكر، ذلك أنَّ مَن جمعوا المعربات حتى الآن لم يدرسوه دراسةً وافية. وقد يرافِقُني عملي هذا إلى آخر عمري، أو إلى أن أقتنع باكتمال الدراسة عنه. فقد أصدرت عام 1987 «معجم المعربات الفارسية»، فأرضى لفيفاً من العلماء، وأقنعني حيناً من الزمان. غير أنني أحسست بنقصٍ فيه، لاقتصاره على لغةٍ واحدة منها، وهو الفارسية، مع أهميتها بالنسبة إلى المعرب والدخيل.

ومنذ سنوات أخذتُ أحصد وأجمع كلَّ دخيل على العربية، قديمهِ وحديثه، شرقيَّه وغربيه، ومن شتى اللغات. وما كنت أظنني سأجمع قدراً كبيراً من هذه المفردات. وكانت البطاقات تتكاثر، والمفردات تتوالد، والهمَّة تعلو، والفكرة تسمو. حتى تهيَّأ لي صناعةُ «المعجم الذهبي في الدخيل على العربي» منذ الجاهلية حتى اليوم.

وقد تبيَّن لي أنَّ الموقع الجغرافي للدول العربية، والظروف السياسية والاستعمارية التي واكبَتْها منذ عصور الجاهلية الأولى حتى زماننا هذا جعلت الدماء تختلط، واللغاتِ تتلاحم. وإذا بأكثَرَ من ثمانية آلاف لفظ احتصَدَ معي، نصفها تقريباً عُرِّب في العصور السالفة، والنصفُ الآخر تسرَّب منذ عصر النهضة، وما زال يتسرب حتى زماننا هذا.

وجليٌّ لكل باحث لغوي أن اللغة العربية قديمة جداً، ولعلها أقدم اللغات

السامية، ومن أقدم لغات العالم. وهي لم تخرج في جاهليتها من قلب الجزيرة، وإذا خرجت في الإسلام فللجهاد ونشر الدين. ولم يتكلم العرب بغير لغتهم، ولا كتبوا بغير ألف بائهم مع مسيرة تاريخهم، على عكس كثير من الأمم. ولهذا حافظت العربية على كيانها وأصالتها، وسيحميها القرآن الكريم مستقبلاً.

وكانت العربية - وهي في عُقر جزيرتها - كريمةً سخيةً، تمنح نَسْغَها الخصب الأمم المجاورة وغير المجاورة. وإنْ هي أخذت في الجاهلية أكثر من أن تعطي، لقد بدأ سخاؤها بُعيد ظهور الإسلام، لذلك نجد آلاف المفردات العربية تتسرب إلى لغات الأمم بسخاء، سواءٌ المحبة منها والسخية. ولعل العربية أكثر اللغات الدخيلة تربُّعاً على اللغات: الفارسية، والأوردية، والتركية. إضافةً إلى: الإسبانية، والبرتغالية، والإفريقية، والهندية، والمجرية.. وما جمعتُه حتى الآن من معربات أقلُّ كثيراً من المفردات العربية المقترضة في لغات العالم.

وإنَّ سُنَّةَ حياة اللغات وتطورها أساسُها الاقتراض. فالعربية أقرضت واقترضتْ، كذا الأمر مع اللغات الأخرى.

ولم يكن قصدي من جمع المعرب والدخيل أن أبينَ مدى كثرة اقتراض العربية، بل كي أبيّن قوة لغة القرآن في قدرتها على الأخذ والإعطاء من جهة، وأن أُظهر مدى تَمادي المحدثين في استقائهم من اللغات المتحضرة اليوم، حتى بات بعضهم - مع الأسف - يتصور عجز العربية عن احتواء العلوم الحديثة، واقتصارها على لغة الأدب والشعر.

وإذا رخَّصَ القدماء لأنفسهم استيرادَ الدخيل وتعريبه لحاجات معينة، فإن المعاصرين اليوم يتمادَوْن بالدخيل والتعريب تباهياً بمعرفتهم لتلك اللغات، ولا سيما الغربية. وفي الوقت الذي كانت الجامعات في سورية تحضُّ على تدريس الطب والعلوم الأساسية باللغة العربية، نرى بعض الجامعات العربية تفرض اللغة الإنكليزية على تدريس هذه العلوم وغيرها كالتجارة.

وقد اقترضتِ العربية قديماً من: الفارسية، والآرامية، والقبطية، والهندية،

والبربرية، والحبشية، واليونانية، واللاتينية، والعبرية. واقترضت في العصر الحديث من: الفرنسية، والإنكليزية، والإيتالية، والألمانية، والإسبانية، والمجرية، والروسية..

ولهذا رأيت لزاماً عليّ ألا أكتفيَ بجمع هذه المعربات وإنزالها في معجم واحد، بل أعمدُ إلى دراستها دراسةً فنية دقيقة، أكشف فيها أسباب هذا الكمِّ الواسع، وأنواع هذه المفردات المعربة، وإذا كان لبعضها بديل أو لا، ولماذا عرَّبَ العرب مفرداتٍ لها بديل؟ ولماذا لم يكن لبعضها مرادف في العربية؟

وقسمتُ عملي إلى خمسة فصول؛ ضمَّ الفصل الأول دراسةً لغوية للمعرب والدخيل، ومفهومهما، والقنوات التي انطلقت منها هذه المفردات، وأسباب تسرُّبها إلى العربية، والسُّبل التي خدمت هذا التسرب، والعوامل التي أكثرت منه، والقواعد العامة التي وضعها العلماء منهجاً لكشف المعرب. وخصصت جانباً منه لتعريب العرب القدماء للفارسية، واليونانية، واللاتينية.

وانتقلتُ في الفصل الثاني لعلماء التعريب بين الأمس واليوم، وتوقفت عند مُبدع هذا النوع من التصنيف وهو الجواليقي، ثم استعرضت أعمال من جاء بعده كالخفاجي، والسُّبكي، والسيوطي. واستعرضت دور علماء التعريب المحدثين كإدِّي شير، وأحمد تيمور.. وبينتُ أوهام المعربين المعاصرين.

ودرست في الفصل الثالث التعريب قديماً، وكيف نقلوا من الحبشية، واليونانية، واللاتينية، والعبرية، والسريانية، والهندية، والفارسية، والتركية، مع نماذج لكل لغة.

وانتقلتُ في الفصل الرابع إلى التعريب حديثاً، وكان مقصوراً على اللغات الغربية بفعل الحضارة والهَيْمنة. وبينتُ سبب غزو جيوش الدخيل من هذه اللغات على بُعد الشُّقة. وبرهنت على ذلك بنماذجَ من هذه المعربات؛ كلٌّ بحسب نوعه ومجاله. علماً أنني حاولت فصل اليوناني واللاتيني القديمين على الغربي الحديث، قدر الإمكان، بما في ذلك اليوناني، واللاتيني المتداول اليوم.

وبسطتُ في الفصل الخامس ثلاث موضوعات في مرآة المعرب والدخيل، وهي: المعرب في القرآن الكريم، والمعرب في الحديث النبوي، ورتبتُ فيهما المعربات بحسب التسلسل الألف بائي، والمعرب في الشعر العربي وأسبابه، ونماذج قليلة متفرقة من المعرب والدخيل مما ورد في الشعر القديم، مرتباً كذلك.

وحاولتُ جهدي ألا أستخدم اللفظة المعربة في أكثَرَ من مجال؛ فما وردَ في القرآن لم أذكره في مكان آخر، وما ذكرته في قائمة النماذج تعمدت ألا يكون من المعربات في الشعر، وهدفي من ذلك الإكثارُ من الألفاظ المعربة والدخيلة خدمةً للباحثين. ولم أفصل في شرح المفردات، لأن تفصيلها وتحليلها جاء في «المعجم الذهبي في الدخيل على العربي». كما أنني لم أرخِ لقلمي العنان، لأن الخوض في التعريب بحر لا قاعَ له ولا ساحل، والإطناب فيه قد يُملل القارئ.

ولم أتطرق للمفردات المغولية المعربة، على كثرتها، لأن وجودها كان في مرحلة معينة كعصر المماليك، ومعظمها رتب عسكرية وإدارية زالت بزوالهم. وما ذكرته منها مما كان العثمانيون يستخدمونه، لأن اللغتين التركية والمغولية من جذر واحد.

كما لم أذكر أسماء الشهور المتداولة في الشام والعراق وهي سريانية من أصل بابلي، ولا أسماء الشهور المعروفة في مصر والمغرب والخليج وهي يونانية ورومانية. كما لم أذكر كثيراً من أسماء المدن والقرى التي وردت في الشعر أو لم ترد لكثرتها، وقد فصلتُ فيها في معجمي، واقتصرت منها على المواضع المشهورة التي تهمُّ القارئ العربي.

ومع أنني شرحت المعربات، إلا أنني توقفتُ عن شرح بعضها لشهرته وتداوُله، ولا سيما معرباتُ العصر الحديث. ولم ألجْ صفحات الدواوين الشعرية الحديثة؛ فلها دراسة وافية فيما بعد؛ بدءاً من البارودي، وانتهاءً بآخر بيت شعري سأقرؤه. ولا أظنني سأفلح بجمع معربات الشعر الحديث، لكثرته

كثرةً قد تستحيل على الصبور، لكنني سأحاول.. فعلى المرء أن يسعى، وليس عليه أن يبلغ الكمال.

ومع صدق حَدْسي ودقة إخلاصي لا أدَّعي صواب كلِّ ما ذكرت من أصول المفردات؛ فالقدماء حاروا، والمحدثون جاروا، وما نقول إنه إنكليزي أو إيتالي قد يعود في أصله إلى اللاتينية أو اليونانية. وما نزعم أنه فرنسي قد يكون له مثيل في لغة أوروبية أخرى. كما أن العرب عَرَّبوا وصحفوا بعض الألفاظ، فزاد ذلك من وعورة الطريق المؤدي إلى أصولها، حتى صرَّح العلامة الجليل إدِّي شير بقوله: «وإني مقرٌّ بوعورة الطريق التي سلكتُ فيها». وأين أنا ممن سبقني؟

وآمل من ذوي الخبرة والمتعمقين في بحث التعريب أن يُغضوا من أبصارهم عن سَهَوات القلم وتقصير صاحبه؛ فمن لا يكتبْ لا يخطئ. كما أن من لا يكتب لا يعاني، فلا يحق له النقد.

هذا، ويعتبُ عليَّ بعضهم كثرةَ إنتاجي، ويَتَّهمني آخرون بأنني أستعين ببعض صغار الأدباء حين رأوا غزارة ما أنتج.. لأنهم لم يتصوَّروا بأن أديباً يستطيع – في هذا العصر – أن يؤلّف ويشرح ويحقق ويترجم أكثر من مئة كتاب، في حين أنهم لا يقدرون على إنتاج أكثر من كتابين أو ثلاثة. فأينَ من يكتبون لي؟ ومَن هم؟ ولماذا يكتبون لي ولا يكتبون لأنفسهم؟ وكم حاولت مساعدة مَن يتعثر في تأليف كتابه أو نشره، حتى ممّن يَتَّهمونني بُطلاً، وهم يعلمون!

ولهذا وخوفاً على تزايُد قلق الحاسدين وضجر العاجزين، رحتُ أشتغل بعملي التأليفي سراً وبصمت، ولا أعمد إلى الظهور حتى لا أضايقهم. ومع ذلك أراهم يَتَتبّعون حركاتي ومنشوراتي، ويَقْلبون المفاهيم كي يجدوا ثغرة يطعنون بها؛ فأحدُهم ادَّعى بأنني «حققت» الإعجاز والإيجاز للثعالبي، وكالَ لي من الكلام ما أربأ عن ذكره وذكر اسم المهاجم، علماً أنني كتبت على الغلاف «شرحه وعلّق عليه»، وهدفُه أن يبرِّرَ تحقيقه للكتاب. وآخَرُ سرق عملي في «ديوان ابن عبد ربه». وآخر من العراق ادعى أنني لم أذكر في مراجعي كتاب

العلامة الحسني عن اليزيدية، وما درى المسكين أنَّ الكتاب طُبع مرتين، وحَمل في كل طبعة اسماً، علماً أنني ذكرته باسم الطبعة التي لم يرها في قائمة مراجعي. وهاجمني تلميذ في الماجستير في بحثه عن المعربات في شعر الأعشى، وطعن بالمعجم الذهبي (فارسي - عربي)، لأنني رفضت الإشراف عليه لعدم معرفته للفارسية، فأشرفَ عليه زميل أجهل منه بالفارسية، وشاركه بالطعن. وادَّعى آخر بأنه صوَّب لي معجم المعربات، فقام بتشويهه جهلاً منه وإهمالاً. وأحمدُ الله أن المعجم طُبع الطبعة الأولى غُفلاً من تصحيحه (تشويهه)، وهو الذي أعتمده.. ناهيكم عمّن يجرِّح بالكلام أو التشهير من غير برهان، وهم كثير.

وإنني أرجو من الناقد الذي يرغب بتناول أعمالي أو جانب منها، أن يقرأها أولاً وأن يتحلى بالعدل والنَّصَفة ثانياً.. فمعظمُ نقادنا اليوم ينقدون أكثر مما يقرؤون، ويجنحون إلى الهوى والطعن ولا يُنصفون. فقد ندر المدحُ وشاع القَدْح، وغدا المتسقِّطون للعثرات أكثر من مُبرزي الحسنات. وإنني هنا أترفع عن ذكر أسماء المسيئين إلى روح النقد الصادق، حتى لا أكون نِدًّا لهم.

ويطيب لي - في هذه المقدمة - أن أبين للمحبين والسائلين أسباب كثرة إنتاجي:

1 - إيماني بأن الكتابة هبةٌ من المولى تعالى، وعليَّ أن أشكره عليها، وأن أقدِّرَ هذه الهبة الربانية بالعمل والمثابرة، وقد قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

2 - إيمان أسرتي بأنني حين أدخل مكتبتي أعمل وأنتج، فيسَهِّلون علي فرصة الانعزال، ولا سيما زوجتي التي رافقتني وقلمي خمساً وأربعين سنة.

3 - انشغالي بالتأليف منذ وقت مبكر؛ فقد صدر أول كتاب لي في حلب عام 1953 وأنا طالب في المرحلة الثانوية. وصدر الكتاب الثاني في بيروت عام 1954 وأنا طالب في الثانوية العامة... ولم أتوقف عن الكتابة مدة خمسين سنة، سواءٌ كنت في وطني، أو في زياراتي للجامعات العربية والغربية.

4 – عدم انشغالي بالمناصب الإدارية في الجامعات، لأنني أرى الأعمال الإدارية تهدُر الوقت العلمي، مع تقديري لمن يتطوَّعون لمثل هذه الأعمال.

5 – الصبر الذي أكابده وتعلمته من علمائنا الأقدمين وأساتذتي الذين تمثَّلتُ بهم في حياتي العلمية، وعلى رأسهم عمر فروخ الذي أخرج أكثر من مئة وستين كتاباً.

6 – لدور النشر فضل كبير علي؛ فهي تصرُّ على أن يكون ما أكتبُه من منشوراتها، وكم ألقى عتابَ بعضهم، لأنني أعطيت حقَّ نشر الكتاب لواحد منهم دون الآخر. وأعترف بأن حبَّهم هذا أساء إليَّ؛ فبعضهم أخذ الكتاب الذي حققته فنشره باسم صديق للدار، لسبب يرونه ضرورياً له. وبعضهم الآخر تجرَّأ علي بنشر ثلاثة كتب باسمي للتجارة. فحين نشرتُ شرحي لجواهر البلاغة تأليف سيد أحمد الهاشمي، تجرأت الدار الناشرة بأن طلبت من مسوِّق كتبي بأن يشرح لها ثلاثة كتب للهاشمي، شريطة أن تطبع باسمي من أجل الربح. فعاتبتُ الدار والمسوِّق وتوقفتُ عن العمل معهما.. وهأنذا أعلنُ تنصُّلي من نسبة هذه الكتب الثلاثة إلي باستثناء جواهر البلاغة[1].

7 – طول العمر: فقد مدَّ الله في عمري حتى تخطيتُ السبعين.. فهل أريحُ الحساد بالتوقف عن العمل، وقد منحني الله عمراً وصحة؟ أطال الله عمرهم على حب الخير.

8 – ولن أنسى فضلَ الصحب الذين يسوؤهم أن يعمل غيرهم وأدمغتهم عقيمة، وكنت كلما رأيتهم يغتاظون اعترَتْني الحماسة للإنتاج أكثر.

9 – توزُّع ثقافاتي واختصاصاتي بين: العربية، والفارسية، والعبرية، والتاريخ، وحبي لوطني. ولهذا جاءت مؤلفاتي تضمُّ هذا كله.

(1) هذه الكتب هي: القواعد الأساسية للغة العربية، جواهر الإملاء، ميزان الذهب. وكلها لسيد أحمد الهاشمي، نشر مكتبة المعارف، بيروت. 7.

فإن كانوا يعتبون علي كثرة إنتاجي، فلماذا لا يعتبون على توفيق الحكيم، وزكي المبارك، وشوقي ضيف؟ وأين العيب في الجاحظ، وياقوت، والسيوطي مثلاً؟

راجياً في الختام أن يلقى كتابي هذا رحابةَ صدر لدى الباحثين. وإنني أتجرأ بتقديم هذا الكتاب لهم، والله الموفق.

مسقط في ٢٠٠٤/٧/١٨
محمد التونجي

opeikandl.com